مقلع حجارة التماثيل في المثمنة (سكزلار)

الدكتورة ستيفانيا ماتزوني

تعريب : الدكتور شوقي شعث

ازدهر فن صناعة التماثيل الكبيرة في مطلع الالف الأول قبل الميلاد بشمال سوريا في مراكز كانت تقوم فيها سلالات حاكمة تتمتع باستقلال ذاتي ، وكان الطلب على تلك التماثيل يزداد لتلبية حاجات الاحتفالات والأغراض التزيينية ، وتبعاً لذلك زادت حوانيت النحاتين ، نشاطاتها وبالتالي أُعدادها وتنوعت أساليبها وموضوعاتها التصويرية ومن بين تلك المراكز التي تعود لتلك الفترة كانت : كركميش ، تل برسيب زنجرلي وقره تبه ، هذا ويمكن دراسة طرق قطع الحجارة واعدادها من خلال واحد من هذه المراكز في مقلع بالهواء الطلق يقع في سكزلار كان قد اكتشفه جورج تشلنكو عام ١٩٦٦ ودرسته البعثة الايطالية العاملة في سوريا بتل مرديخ - ايبلا بإدارة الاستاذ باولو ماتييه ، في السبعينات . تقع قرية سكزلار على بعد ٣٠ كم تقريباً الى الشمال من مدينة الباب والى الشرق من بلدة جوبان بك بمقدار عشرة كيلومترات هوائية ، وتقع المنحوتات التي تم التعرف عليها على سفح تلة امام القرية وتبعد عنها حوالي ٦٠٠ م الى الشمال الشرقي ، هذه التلة هى إحدى التلال البازلتية الكثيرة التي تظهر فيها الكتل الحجرية التي تعتبر فريدة في تكونها بتلك المنطقة ولم تكن تلك المنحوتات تتوضع وفق مخطط هادف وإنما كانت تختار تبعاً لحاجات ظرفية ومختلفة تبعاً لاشكال وحجوم التماثيل المطلوب عملها،ولم يعثر على كسر فخارية في الموقع الذي يجب أن يعتبر تبعاً لذلك

كمكان في الخلاء (الهواء الطلق) لقلع الحجارة وأعمال البازلت . تضم المنحوتات شكل أسد (تمثال أسد) ورؤوس ثلاثة تماثيل لابي الهول. وعلاوة على ذلك وجدنا كتلتين متوازيتي السطوح مع بروز في الجزء الامامي في الشكل الصغير ، وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن هاتين الكتلتين ليستا منحوتتين ولكنها من المؤكد أنهما صنعتا بصورة منفصلة كلاً عن الأخرى وهذا يعني أنه من المحتمل أنهما صنعتا للاستعمال كأكتاف أو دعامات معمارية . يظهر تمثال الاسد بكمّامة نحتت على شكل دائري بالجزء الامامي في حين يظهر جسمه بارزاً على الجانب الايسر من الكتلة الحجرية التي قطعت في البداية على شكل متوازي السطوح وعليه يمكن أن تكون قد عملت لتزيين العضادة اليمنى من الباب . شكل الحيوان بالكاد يظهر وتبرز مخالبه واضحة بالمقارنة مع لبدته في حين أن

مخالبه الامامية والخلفية تكاد تظهر من تحتها ، كما يمكن مشاهدة أشكال تأخذ شكل ٧ على الجانب الواقع باتجاه مدخل الباب ، أما الجانب الآخر الذي يفترض أن يلصق على الجدار فعليه بعض الخطوط المحفورة بانتظام وربما قصد بها تمتين الربط مع الجدار .

تعود أشكال تماثيل أبي الهول الى نفس الطراز Typology فلرؤوسها أغطية معقدة بارزة في الأعلى وهناك قطع عمودي يقسم الشكل الى شطرين متساويين تماماً ولا يمكن اعتبار ذلك مجرد صدفة وعليه يمكن أن يكون ذلك بهدف صنع شكلين متشابهين ومتناظرين لاستعمالها لتزيين بابين متجاورين ، لقد بقي من التمثال الثاني لابي الهول الرأس وبداية الصدر وقد صنع بنفس الطريقة التي صنعت بها الأشكال الاخرى ولها نفس غطاء الرأس ، وفي الحقيقة لها نفس ملامح الوجه ذي الانف الكبير والمنبسط الذي لم يمثل بكل تفاصيله ، له نفس الوجنات العميقة . نفس الشيء يمكن أن يقال عن تمثال أبي الهول الثالث الذي يرى منه فقط غطاء الرأس والنصف العلوي من الوجه بينما بقية الجسم لازالت مدفونة تحتَ التراب .

إن تماثيل أبي الهول والاسد تشبهان تماماً منحوتات Yesemek يسِمِك،وعليه يمكن أن نعتبر بشكل أكبر أن المجموعتين من عمل نحات واحد وطبقاً لهذه الفرضية يمكن أن يكون نحاتاً متجولاً استعمل مقالع بازلتية مختلفة حسب طلب المشتري من السلالات الحاكمة المختلفة ففي المقلع تختار الكتل الحجرية طبقاً للشكل والحجم وتشكل المنحوتات بصورة أولية ثم تنقل الى الموقع الذي ستركز فيه نهائياً حيث يتم ابراز التفاصيل الدقيقة .

من ناحية أخرى فإن لمركزي يسمك Yesemek وسكزلار Sikizlar طبيعة خاصة فيما يتعلق بأشكال أبي الهول وعلى وجه التحديد نماذج الرؤوس هذا وقد عثر في حفرة في زنجرلي على ثلاثة رؤوس أخرى لابي الهول وهي بالتأكيد جاءت من مقلع يسمك Yesemek وتعود الى طبقة المعبد القديم وذلك قبل التنظيم النهائي لمدخل القلعة الداخلي ، بالنسبة للمدخل الرئيسي للقلعة ، الذي نظم وزين بالمنحوتات في عصر سلالة حيان Hayan وشعيل Shail قبل كلاموا Kilamuwa في الربع الاول من القرن التاسع قبل الميلاد حيث تعتبر أغطية رؤوس تماثيل أبي الهول وطريقة نحتها أمور اضافية نافعة في تأريخها .

لم تكتمل أغطية الرأس في منحوتات زنجرلي ، ويسمك وفي سكزلار ، ونرى في تمثال أبي الهول المكتمل في زنجرلي نموذجاً مختصراً لغطاء الرأس ، ففي هذا التمثال نجد بروزاً أو عقدة عند نقطة التقاء شريطين على الجبهة حيث تتدلى الى الاسفل حتى الصدر وحيث تنتهي بجديلتين تشبه جدائل هاتور ، هذا النوع من غطاء الرأس ينحدر بالتأكيد من نماذج رؤوس كولولو Kululu كرأس كركميش (B67a) الذي قال عنه اورثمان Or-thmann بأنه رأس لأبي الهول ، وعلاوة على ذلك فهو يعتقد أن العقدة الموجودة على الجبهة إنما هي نتيجة تقاطع القرون وهي موجودة حقاً بوضوح في أغطية الرؤوس العائدة لتماثيل أبي الهول في كولولو ، كل هذه الامثلة إنما هي تكرار لنفس نماذج أغطية الرؤوس ، وفي رأيي أن البرهان موجود في استمرار حضور الشعر المتموج ، دون وجود غطاء رأس كامل في كولولو وبوجود تاج في كركميش ، الذي يتبع التقاليد السورية الحثية من القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد .

إن أقرب شبه لأغطية رؤوس تماثيل أبي الهول تلك يفترض أن توجد في تماثيل أبي الهول الحثية من العصر الامبراطوري في الجاهبوك Alaca Huyuk و يركابو Yerkapu ففي تماثيل الموقع الأول يظهر التأثير المصري واضحاً حيث يوجد غطاء رأس ينتهي بجديلتين تشبهان جدائل هاتور (حاتور) تتدليان على الصدر حسب التقاليد السورية المحلية،وفي تماثيل الموقع الثاني نجد غطاء رأس مزين بالقرون أو ربما لها جدائل حاثورية حرة تضع فوقها غطاء مزيناً بقرون ، وعلى كل حال فإن كلا النوعين ليسا اختراعاً ذاتياً بل ربما يعودان الى النماذج السورية الاقدم كما هو الحال في تماثيل أبي الهول العاجية في أزم هويوك Acem Huyuk التي صنعت ربما في المراكز الفنية لسوريا الشمالية ففي تماثيل أبي الهول العائدة الى الموقع الاخير اي أزم هويوك نلاحظ أن أبي الهول يجلس على مخالبه الخلفية وينتصب على المخالب الامامية ، وله غطاء رأس معقد اذ يلبس غطاء رأس له عقدة أمامية مألوفة وجدائل هاثورية وهو بذلك متأثر بالفن المصري عن طريق الفنانين السوريين .

في الواقع إن غطاء الرأس هنا هو نموذج هجين لغطاء الرأس المعروف باسم كلافت Klaft الذي يحمل حية مقدسة من الامام وغطاء الرأس الهاثوري ، إن وجود الحية المقدسة غير مفهوم في المنطقة السورية الاناضولية،أو لنقل بمعنى آخر انه ليس لها أي معنى رمزي هناك،فقد حلت محل القرون أو محل العقدة التي كانت تظهر على الجبهة ، وعليه يمكن القول بأن تماثيل أبي الهول التي تعود الى مواقع يسمك Yesemek وسكزلار Sikizlar وزنجرلي Zincirli تنحدر مباشرة من التقاليد التصويرية السورية . إن مايدعم هذا الرأي هو تطور نموذج الرأس فهو لم يكن في الواقع معروفاً في التماثيل السورية الحثية التي يعود الى الألف الاول قبل الميلاد بينما هي موجودة في منحوتات باب الاسود في بوغازكوي Bogazkoy وفي تماثيل أبي الهول في الجاهيوك التي سبق ذكرها Alaça Huyük فهي لم تكن الا تنفيذ ضخم لتماثيل أزم هيوك Acem Huyuk التي تجلس على قوائمها الخلفية فهذا الوضع ، في الواقع ، مألوف تماماً في الأختام السورية القديمة والميتانية كذلك وجد في شكل حيواني - ربما كان أبا الهول - مثل على نقش نافر خلف أحد تماثيل أبي الهول في الاجا .

وانطلاقا من تلك الاعتبارات فإنه من غير الممكن إعادة رؤوس تماثيل أبي الهول في Sikizlar وزنجرلي ويسمك الى المدرسة الفنية السورية الحثية التقليدية كما هو الحال في المراكز الفنية بكركميش ، تل حلف ، زنجرلي ، كره تبه ، ساكي غوزو Sakcagozü من القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد وهذا التاريخ هو أنسب تأريخ يمكن أن تؤرخ به المقالع ومنحوتاتها . في الواقع بالنسبة الى يسمك فقد اقترح أن يكون تاريخها بالفترة مابين القرن الثالث عشر ومطلع الألف الأول وإضافة الى ذلك يمكننا أن نضع معبد عين دارا الى نفس الفترة التاريخية . وفيما يتعلق بارباب الجبال في يسمك التي لم تكن معروفة في الفن السوري الحثي التقليدي فإنها تعود عصر أقدم ربما العصر البرونزي الحديث وكذلك الرؤوس . وهنا نعني رؤوس الاسود ووجه أبي الهول مع غطاء الرأس الذي يشبه تماماً تماثيل رؤوس سكزلار ويسمك . واذا وضعنا في الاعتبار هنا التاريخ السابق للقرن العاشر فلا بد أن تؤرخ المنحوتات موضوع الدراسة هنا الى الفترة مابين بداية القرن العاشر والقرن الحادي عشر قبل الميلاد .

هذه النتيجة لا تتناقض مع الوضع الاقتصادي والسياسي العام للمنطقة في هذه المرحلة ، لقد سبق أن ذكرت انه لاتوجد «فترة مظلمة» في المنطقة تمتد من داخل سورية الشمالية إلى الفرات وجنوب الاناضول ، وعلى العكس فإننا نشاهد استمرارية في الحياة السياسية والثقافية بالمقارنة مع العصر البرونزي الحديث حيث أصبح تقليص النفوذ الحثي حسنة لهذه المنطقة التي عرفت تطوراً اقتصادياً تدريجياً وكان هذا بكل تأكيد مترافق مع تقدم تكنولوجيا المعادن وربما جزئياً الى وجود توضعات حديدية ، أي من معدن الحديد ، كبيرة في المنطقة وهكذا فإن تاريخ هذه المقالع البازلتية الى مطلع الفترة التي تمتد مابين القرنين الحادي عشر والعاشر متوافق بشكل جيد مع الصورة السياسية والاقتصادية للمنطقة في هذه الفترة خصوصاً اذا وضعنا في اعتبارنا الاعتماد الكلي لهذه المنحوتات على تقاليد العصر البرونزي المتأخر .

يحمل هذا التقويم في طياته صعوبة واحدة فمن جهة لدينا في بداية فترة القرنين الحادي عشر والعاشر واذا لم تكن شاملة القرن الثاني عشر ما بعد الميلاد . مقالع منحوتات لها علاقة واحدة بأعمال الموقع مثل موقع عين دارا ، ومن جهة أخرى فالمقالع التي تضم منحوتات غير منجزة لا تزال في أماكنها فهي لا تخص الفترة ما بين القرن التاسع والثامن وبالتحديد فترة الفن السوري الحثي التي نشاهدها في السلسلة الكاملة للمنحوتات المنجزة في أماكنها النهائية ومن الواضح أن هذا يعتمد على الأوضاع التاريخية المختلفة ، ففي حين نجدها بالمرحلة الثانية انعكاس للنشاط العادي حيث كانت الادوات المصنوعة ترسل إلى المشترين ، نجدها بالمرحلة الاولى استمرار لحالة غير مألوفة فيها تقطع المنحوتات في خطوطها العامة ولكنها لم تصل الى مكانها النهائي كما حدث بالنسبة للرؤوس الثلاثة في زنجرلي التي وجدت في طبقة المعبد القديم حيث لم تكن مكتملة ولم تثبت في مكانها النهائي وهذا مايمكن اعتباره حالة عرضية لابد أن تعود الى النهاية المفاجئة لنشاط تلك المعامل وعدم تمكن المدن التي كانت معنية بالشراء من استلام المواد المصنوعة فإذا حدث هذا في الفترة التاريخية المقترحة فلا بد ان ذلك يعود الى الحادث الوحيد الذي سبب الأزمة في المراكز الحضرية في سوريا الشمالية الا وهو حملة تغلات بلاسر الأول Tiglat pileser I ضد بلاد كركميش ، إن صح تقديرياً هذا فإن تماثيل زنجرلي ومنحوتات مقلع Yesemek ومنحوتات سكزلار Skizlar ربما أمكن تأريخها الى الفترة ما بين نهاية القرن الثاني عشر والسنوات الاولى من القرن الحادي عشر وذلك قبل حملة الملك الآشوري على سوريا بقليل .

وأخيراً فإنني أعتقد أنه بإمكاننا أن نستخلص تاريخاً ممكنا بالمقارنة مع المراكز المعروفة سابقاً البعيدة وعليه فمن الممكن أن تكون منحوتات يسمك قد صنعت لأحد المراكز الحضرية في كركميش أو تل رفعت هذا من ناحية أما من ناحية أخرى فإن مركز يسمك Yesemek يتبين بوضوح صحة ما ذهبت اليه أعلاه . ومن المفيد أن نذكر هنا انه عثر على قاعدة عمود عليها شكل أسد بالقرب من قرية زلفي الى الجنوب من سكزلار وعلى بعد بضعة كيلو مترات منها . يمكن تأريخ تلك القاعدة بأنها تعود الى القرن الثامن قبل الميلاد ، لقد عثر على تلك القاعدة فوق تلة بازلتية غير مرتفعة كانت تستعمل كمقلع وهذه التلة تقع

الى الجنوب الغربي من تل صاندي Sanndi المركب والذي توجد على سطحه كسر فخارية كثيرة تعود الى العصر الحديدي الدور الأول والثاني تتركز على طرفه الغربي بوجه الخصوص حيث يوجد ممر واسع يمكن أن يكون بوابة المدينة القديمة الذي يوجد على جانبها الجنوبي عدة حجارة مشغولة ، وعليه فإنـه يمكن أن يكـون موقع صاندي Sanndi هو المـوقـع المناسب نظراً لطبيعـة فخـاره وشكله الـطوبغـرافي الـذي صنعت من أجله منحـوتات سكزلار Sikizlar .

* * *